علم المصطلح وأثره في بناء الخطاب اللساني العربي الحديث المنجز اللساني للأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح مثالا.

د. بشير إبرير
جامعة عنابة-الجزائر-

1)- تقديم:

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة تسليط الضوء على علم المصطلح وأثره في بناء الخطاب اللساني العربي الحديث بصفة عامة على مستوى: البناء المعرفي، والبناء المنهجي، و البناء اللغوي، مع التأكيد على أهمية العلاقة بين هذه المستويات وتميزها بالانسجام والتماسك.

وسنخص بالبحث والدراسة المنجز اللساني عند الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح، ولذلك سنتناول جملة من القضايا منها:

ماهية علم المصطلح وأهميته العامة بالنسبة للمعرفة وعلاقته بالخطاب اللساني العربي الحديث بصفة خاصة، وكيف تجلى عند الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح على مستوى البناء المعرفي والبناء المنهجي والبناء اللغوي.

2)- علم المصطلح أهميته وماهيته:

يعد علم المصطلح **Terminologie** فرعا من اللسانيات التطبيقية يبحث «في العلاقة بين المفاهيم والمصطلحات اللغوية التي تعبر عنها، وهو علم ليس كالعلوم الأخرى المستقلة لأنه يرتكز في مبناه ومحتواه على علوم عدة من أبرزها علوم اللغة والمنطق والإعلامية وعلم الحاسبات الالكترونية وعلم الوجود وعلم المعرفة وحقول التخصص العلمي المختلفة يستفيد من ثمار

هذا العلم المتخصصون والمترجمون والمعجميون والمسؤولون عن التخطيط اللغوي والقومي والعالمي»[1].

يلاحظ القارئ لهذا الرأي ارتباط علم المصطلح بميادين عديدة وعلوم مختلفة. وقد انعكس هذا التداخل في تجديد مفهوم علم المصطلح بطريقة لافتة للانتباه عند دارسين آخرين؛ فتوجد عدة تعاريف لهذا العلم، وفي الوقت الذي يعرفه فوستر EUGEN WUSTER»بأنه العلم الذي يهتم بدراسة أنساق المفاهيم وجدولتها في أصناف منطقية»[2].يعرفه روندو RON-DEAU «بأنه العلم الذي يتخذ طابعا لسانيا.»[3]. وقد سعت إيزو ISO[4] في توصيتها رقم 1087 إلى وضع تعريف شامل تراعي فيه وجهات النظر المختلفة، وهكذا عرِّف علم المصطلح بوصفه الدراسة العلمية للمفاهيم والمصطلحات المستعملة في اللغات الخاصة.»[5].

يرتبط علم المصطلح بالتنمية اللغوية والاجتماعية والاقتصادية ويجعل من اللغة رأسمال يمكن استثماره، وبخاصة في عصرنا بما يشهده من انفجار معرفي وتقني في مجال الإعلام والاتصال وما نتج عن ذلك من تداخل للتخصصات والمعارف والخطابات التي تبلغها وتنقلها عبر الزمان والمكان. وللتمييز بينها وإدراك كنهها ومعرفة أسرارها وفهم محتوياتها ومقاصدها نحتاج إلى إدراك المفاهيم المؤسسة لها، والوعي بالمصطلحات الدالة عليها في نسقها اللغوي حسب نظم الإفادة في الممارسة الاجتماعية التي تتجلى في الخطاب باعتباره «صنفا منتميا إلى الميدان الاجتماعي ومستمدا منه، وتتجلى

1- نقلا عن الدكتور محمد الديداوي -الترجمة والتواصل، دراسة تحليلية عملية لإشكالية الاصطلاح ودور المترجم- المركز الثقافي العربي، بيروت –لبنان- الناشر –الدار البيضاء- المغرب. ط.1 –سنة 2000، ص47

2- نقلا عن –منظمة الصحة العالمية، الكتاب الطبي الجامعي، علم المصطلح/ إشراف الدكتور محمد هيثم الخياط –أكاديميا، بيروت، لبنان- ط.1 سنة 2007، ص31.

3- المرجع نفسه –ص31.

4- - ISO هي المنظمة الدولية للتقييس وقد أنشئت سنة 1946.

5- نقلا عن المرجع نفسه –ص31.

أيضا على مستوى النص باعتباره صنفا منتميا إلى الميدان اللساني ومستمدا منه.»[1].

وهكذا فإن لكل من الخطاب والنص –برأي الديداوي- «وظيفة رئيسية في تلقين المعرفة. إننا نواجه اليوم ثورة معرفية وجيوسياسية كبيرة تعم العالم، إننا نعيد الآن هيكلة مجتمعنا إعادة كاملة؛ بحيث سيصبح كل بلد وكل اقتصاد مرهونا بالمعرفة أكثر من أي وقت مضى، ولابد للثورة المعرفية أن تكون مشفوعة بثورة اتصالية قائمة على التوسع الكبير في السيطرة على الممارسة الخطابية.»[2].

والطريق إلى كل هذا إتقان اللغة وتمثلها وحسن توظيفها واستثمارها حسب ما تقتضيه الحياة على اختلاف وقائعها، وإدراك المفاهيم والوعي بها وإجادة فهمها.

يتأسس العلم على المفاهيم والعلم بذلك يسهل عملية الوصف والتصنيف وإدراك العلاقات القائمة بين العلم الموصوف وغيره من العلوم والمعارف الأخرى، وتحديد خصوصية كل علم ورسم حدوده الفاصلة بما يحقق هويته ومشروعيته ووظيفته ونجاعته في حياة الأفراد والجماعات والمؤسسات وكل ما يرتبط بأداء الخاصة في الميادين الثقافية والاجتماعية واللسانية...الخ.

ولابد من الإشارة في كل هذا إلى الدور الكبير الذي أدته مدرسة **فيينا** في علم المصطلح وعلى رأسها «E.Wuster أوجين فوستر» الذي يعد الأب الحقيقي المؤسس لهذا العلم في الدراسات الغربية. وقد بنى «هيلمون فيلبر H.Filber» عمله على القاعدة التي رأسها فوستروهي التي تقوم على المفاهيم الآتية:

- حقل تتعدد فيه فروع المعرفة وتتشارك للتعبير عن المفاهيم والدلالة عليها.

1- انظر د/ محمد الديداوي –الترجمة والتواصل...ص15.

2- المرجع نفسه –ص16.

- مجموعة مصطلحات تمثل نظاما مفاهيميا لموضوع ما.
- منشور تمثل فيه المصطلحات نظاما مفاهيميا.

وبهذا فإن علم المصطلح برأيه يهدف إلى:

- تنظيم المعرفة في شكل تصنيف مفاهيمي لكل فرع من فروع المعرفة.
- نقل المهارات والمعارف والتكنولوجيا.
- صياغة المعلومات العلمية والتقنية وإشاعتها.
- تخزين المعلومات واستخراجها.[1].

3 - جهود العلماء العرب القدامى في الظاهرة المصطلحية:

تحسن الإشارة السريعة هنا إلى الجهود الكبيرة التي بذلها العلماء المسلمون القدامى في دراستهم للمصطلح على مستوى الوضع والتداول.

فقد بين الأستاذ محمد إقبال عروي[2].- أنهم وضعوا بنودا خاصة بضبط العملية الاصطلاحية وتوجيهها الوجهة الصحيحة بغية تحقيق تواصل معرفي فعال؛ ومن ذلك تأكيدهم على:

- **العرف الخاص:** بأن ينشأ المصطلح داخل فضاء علمي خاص به يتولى ابتكاره وصياغته باحثون متخصصون في ذلك الحقل المعرفي يتفقون على وضع المصطلح المناسب للمفهوم المناسب بعد استيفائهم لما تقتضيه أخلاق المشورة العلمية.

- **الوضوح:** إن الوضوح شرط أساسي من الشروط التي يقتضيها وضع المصطلح، ولابد من مراعاة ذلك، وقد ألح العلماء المسلمون الأوائل على هذا البند واستوفوه حقه من البحث، فيجب أن يكون المصطلح واضح الدلالة دقيق الإحالة محددا لمعانيه تحديدا حصريا.

1- انظر –المرجع نفسه- ص47/98.

2- انظر –الدكتور محمد إقبال عروي- من بنود الاصطلاح في التراث الإسلامي- مجلة آفاق الثقافة والتراث –فصلية ثقافية تراثية- تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات –مركز جمعية الماجد للثقافة والتراث-العدد 22/23 أكتوبر 1998م،الإمارات العربية المتحدة. المقال كله مهم.

- **كما فتحوا باب الاجتهاد الاصطلاحي:** فقد دافعوا عن الحرية الاجتهادية في الاصطلاح وحصروها في طائفة العلماء والمختصين في الحقل المعرفي المحدد الذين بمقدورهم إيجاد الكيفية اللازمة والمنهجية الملائمة لمقتضيات الاستعمالات اللغوية التي تضطرهم إليها مضايق المعرفة في الحقل المعرفي الذي انتظم جهودهم، وبموجب كل هذا أعطوا الأولوية للمصطلح الساق تاريخيا وأهملوا المصطلح اللاحق، إذا كان المصطلح السابق جاريا على شروط الاصطلاح؛ كأن يكون واضحا ودقيقا ومتوفرا على الاقتصاد اللغوي المنشود.

وبموجب ذلك نقدوا ظواهر التكرار في المصطلح وفي المفهوم وبما أن هذه الظواهر لها تعلُّق بالمقولة المشهورة «لا مشاحة في الاصطلاح»، فقد تعين وضعها في سياقها العلمي حتى لا تكون مناقضة.

لقد تميز العلماء العرب القدامى بعمق النظر المنهجي ودقته فتعاملوا مع المعرفة الوافدة إليهم بحكمة وتبصر ووظفوها في لغتهم ووظفوها في منجزاتهم العلمية، وصدروا معرفتهم وتقلوها إلى الآخر من منطلق قوة في المعرفة عمقا وإتقانا. فمكنوه من فهمها والاستفادة منها في البناء الحضاري، وبخاصة ما تعلّق بعلوم اللغة.

4 - واقع الدراسة المصطلحية العربية الحديثة:

يصلح هذا أن يكون موضوعات بحثية متنوعة تقوم بها فرق بحث كل في اختصاصه، ولذلك نشير بشكل عام إلى واقع البحث المصطلحي العربي الحديث والمعاصر، فهو يتميز كما ذهب إلى ذلك الدكتور خالد اليعبودي- بخطابين:

- **خطاب مصطلحي كلاسيكي:** من أهم انشغالاته التأكيد على الدور الريادي للغة العربية وتراثها الاصطلاحي الكبير.

- **خطاب مصطلحي معاصر:** يرتكز على المبادئ النظرية والمنهجية التي استحدثتها المصطلحية الغربية.

وقد نتج عن هذا الخطاب الأخير نوعان من المصطلحية:

- **مصطلحية عربية:** مكتوبة باللغة العربية أساسا وتعرض لمنجزات الغرب في هذا العلم.

- **«مصطلحية العربية»:** المكتوبة باللغة العربية أو بغيرها من اللغات الأجنبية، وتعنى بدراسة الأجهزة الاصطلاحية للخطابات العلمية العربية في أنساقها المختلفة...[1].

ونضيف إلى رأي الدكتور اليعبودي، افتقاد اللغة العربية إلى ما يسمى بالمعاجم التحليلية التي تعنى بالمفاهيم الخاصة بكل علم؛ لأن نمط المعاجم السائدة عندنا، التي تتعامل مع الكلمة مفردة وما يقابلها بكلمة مفردة باللغة العربية أو ما يقابلها باللغة بالأجنبية لم تعد ذات فائدة علمية كبيرة، بما يحقق تلقي المعرفة من الآخر أو نقل معرفتنا –إن استطعنا- إلى الآخر، في جميع المجالات خاصة اللسانية منها.

5 - أثر علم المصطلح في بناء الخطاب اللساني:

يوجد تضافر للجهود بين اللساني وعالم المصطلح، فهما يتقاسمان المهمة في البحث والدرس؛ وعندما يدرس عالم المصطلح طبيعة المصطلح فهو-بذلك- يكمل علم اللساني الذي يعمل هو أيضا، على الإحاطة بموضوع المصطلح وفهمه وتمثله من مختلف نواحيه، وبذلك يحقق الهوية اللسانية للمصطلح؛ لأن المصطلح عبارة عن استعمال لغوي في مقام تبليغي محدد، يرتبط بعلم أو معرفة مخصوصة.

إن اللساني عندما يطلق المصطلح على شيء ما أو يسمي ذلك الشيء في تخصص علمي ما؛ فإن تلك التسمية تحقق هوية المصطلح من الناحية اللغوية.

1- انظر د/ خالد اليعبودي –تدريس المصطلحية بين الجامعات والمعاهد العلمية العربية والغربية –ضمن أبحاث- المنتدى المصطلحي –سوسة –تونس -2008، ص 347/348.

وكما توجد الهوية اللغوية للمصطلح توجد أيضا الهوية الاجتماعية-الثقافية له؛ لأنه ينشأ ويترعرع في بيئة خاصة يرتبط بها ارتباطا وثيقا؛ فهو كيان لساني يتم شحنه بمعان تتقيد بالأطر الثقافية للمجموعة اللسانية التي تستعمله، ولذلك فهو يعد علامة دالة على تاريخها وتجربتها الثقافية وإنجازها الحضاري؛ فارتباط المصطلح اللساني بالبعد الثقافي له من المبررات ما يجعله يعبر عن خصوصية ثقافية تميز مجموعة لسانية عن مجموعة لسانية أخرى[1] .وقبل أن تتحقق للمصطلح هويته اللسانية والاجتماعية يكون كلمة عامة Mot؛ الأمر الذي يجعلنا نفرق بين الكلمة والمصطلح «فالكلمة شأن عام يستعملها المتكلم مهما كان صنفها أو الحقل المعجمي أو الدلالي الذي تنتمي إليه.»[2].

فمن حيث علاقتها بالدلالة والسياق: فإن الكلمة لفظ ومعنى؛ معنى في سياق وحقل دلالي، بينما المصطلح تسمية ومفهوم في حقل مفهومي مخصص.

ومن حيث علاقتها بالمعجم: فإن الكلمة توجد في المعجم العام، والمصطلح يوجد في المعجم الخاص مع الملاحظة أنه يوجد تفاعل بين المعجمين؛ الخاص والعام.

ومن حيث علاقتها بالاستعمال: فإن الكلمة مشاعة بين عامة الناس المتكلمين والمصطلح مستعمل بين المتخصصين.[3].

إن العلاقة بين اللسانيات وعلم المصطلح تتمثل في كون اللسانيات توفر المقدمات النظرية التي تسوغ من الناحية اللسانية والمنهجية للبحث في مجال المصطلح؛ ولذلك فإن علم المصطلح يمثل ميدانا تطبيقيا من ميادين البحث اللساني؛ الأمر الذي يدخله ضمن تخصص فرعي آخر من اللسانيات، هو

1- انظر- د/ خليفة الميساوي –المصطلح والهوية –ضمن أبحاث المنتدى المصطلحي الدولي، سوسة، 27/28/29/ نوفمبر 2008 تونس – ص139

2- انظر: المرجع نفسه – ص144.

3- انظر:علم المصطلح لكليات الطب والعلوم الصحية- ص66

اللسانيات التطبيقية التي تستثمر ما توفره اللسانيات العامة من معطيات نظرية تتعلق بميدان البحث، ثم استقل بذاته وأصبح علما له موضوعه ومدارسه ومناهجه ومجالات تطبيقه وخطابه المميزله المحقق لهويته.

وبالرغم من كون اللسانيات تعد علما شاملا ثريا خصبا له علاقات نسب ووشائج قربى مع كثيرمن العلوم الأخرى، فإن علم المصطلح يتخذ من المصطلح اللساني موضوعا للبحث.

وإن المتتبع للبحث اللساني العربي يلاحظ أن جهازه الاصطلاحي يعاني أزمة حادة رغم لجهود البحثية التي تبذل من الأفراد والمؤسسات. وتتمثل هذه الأزمة في مظاهرعديدة منها الاختلاف في وضع المصطلح وتعدده[1]. مما أثرفي بناء الخطاب اللساني من حيث القراءة والتلقي سواء أتعلق الأمربالمصطلح اللساني الوافد أم بالمصطلح العربي التراثي الأصيل.

ولما كان المصطلح لبنة أساسية في بناء الخطاب اللساني فإن له تأثيرا واضحا في ذلك ويتجلى على مستوى:

- **البناء المعرفي:** ويتعلق بالمرجعيات الفكرية والأسس المعرفية التي تأسس عليها الخطاب اللساني العربي الحديث، فيوجد **تعدد المرجعيات** في المشارب ومصادر التكوين والترجمة واتجاهات التلقي، مما أدى إلى تعدد **القطائع**؛ إما القطيعة مع التراث العربي بعامة واللغوي بخاصة، واتخاذ مواقف منه وتحميله كل الرزايا عما عانيناه وما نحن فيه.

وإما القطيعة مع الحاضر المعاصر بل ومع المستقبل أيضا. وفي كل هذا يضيع الوعي بالأسس والسياقات الاجتماعية والثقافية التي أحاطت بولادة المصطلح وتطوره.

- **البناء المنهجي:** ويتعلق بممارسات التحليل وطرائقه وإجراءاته بالنسبة للقضايا اللسانية المختلفة مثل: قضية المصطلح وقضية الترجمة وقضية

1- انظر –د/محمد صاري- المصطلح اللساني الحديث من التأسيس إلى التدريس- مجلة الخطاب الثقافي- جامعة الملك سعود المملكة العربية السعودية –الرياض- العدد3 سنة 2008، ص29.

التأصيل للخطاب اللساني العربي، وقضية التأسيس للسانيات عربية، وكيفية الإقناع بمثل هذه القضايا والبرهنة عليها وتحليلها تحليلا مقنعا، والوعي بالجهاز المصطلحي والمفاهيمي الخاص بمنهج لساني ما.

- **البناء اللغوي:** اللسانيات كخطاب يميزها المصلح المستعمل؛ فنميز بين خطاب دوسوسير وخطاب تشومسكي وبنفنست وياكسون... من خلال المصطلحات المستعملة عند كل واحد منهم تبعا لمنطلقاته النظرية واختياراته المنهجية وأهدافه من خطابه، وكل ذلك يتجلى في لغته وما بها من مصطلحات. والأمر نفسه بالسبة للخطاب الساني العربي: فخطاب عبد القادر الفاسي والفهري وأحمد العلوي وأحمد المتوكل ومصطفى غلفان ومحمد غاليم وإدريس مقبول... من المغرب، وخطاب عبد القادر المهيري وصلاح الدين الشريف وعبد السلام المسدي... من تونس، وخطاب عبد الرحمن الحاج صالح وخولة طالب الإبراهيمي وأحمد حساني... وغيرهم من الجزائر، لكل واحد من هؤلاء خصوصيات خطابه التي تميزه وترسم حدوده بالنظر إلى بقية الخطابات، من خلال ما يظهر من مصطلحات ومفاهيم لسانية من مشارب مختلفة، إنجليزية وفرنسية غالبا، وأحيانا من لغات أخرى كالإسبانية والألمانية نتيجة الترجمة، وهذا أدى إلى تعدد المصطلح مقابل المفهوم الواحد إلى الدرجة التي يضيع معها المفهوم الحقيقي للعلم، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ فقد صرنا نقرأ بعض الكتابات ولا نفهم شيئا منها لا لأنها متعالية عميقة المستوى؛ وإنما لأن أصحابها لم يفرقوا بين صيام رمضان وصيام شعبان إن جاز القول. بل توجد رسائل جامعية كثيرة في الماجستير والدكتوراه على أنها من اللسانيات ولكن لا علاقة لها بها.

يرى مصطفى غلفان في هذا الشأن «وجود تراكم من الدراسات والمؤلفات اللغوية التي تعج بها الثقافة العربية الحديثة لا يفرز عند التمحيص النظري

والفحص المنهجي إلا حالات نادرة مما يستحق فعلا أن يندرج في إطار البحث اللساني بالمعنى العلمي الدقيق.»[1].

نشير أيضا إلى أن المستوى المعرفي والمنهجي واللغوي مترابط بعضه ببعض في كل منسجم مكونٍ للبنية العامة للخطاب اللساني العربي الذي يعكس بكيفية أوبأخرى، شأنه شأن الخطابات في المجالات المعرفية الأخرى؛ «مظهرا من مظاهر الفكر الذي أنتجه العقل العربي الحديث، ويعكس بجلاء ووضوح إشكالات هذا العقل بكل مستوياته الفكرية والسياسية والاجتماعية»[2].

ومن هنا فإن قراءة الخطاب وتحليله يجب أن تضع في اعتباره المستويات التي ذكرناها سابقا وهي: البناء المعرفي والمنهجي واللغوي، ولما كان كل مستوى من هذه المستويات يحتاج وحده إلى دراسات وأبحاث تخصه، رأيت أن أختار الحديث عن نموذج واحد على سبيل التمثيل وهو الأستاذ الفاضل الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح نظرا لعدة اعتبارات منها:

- للرجل كتابة لسانية نوعية على المستوى المعرفي والمنهجي واللغوي وسنحاول تبيان ذلك إن شاء الله.

- يكتب باللغة العربية والفرنسية والإنجليزية الأمر الذي جعله يتمكن من نقل صورة واضحة عن البحث اللغوي العربي للآخر بلغته، ويتمكن من نقلها وقراءتها ونقدها وتحليلها باللغة العربية، وهذا قلما نجده عند كثير من الباحثين الآخرين في اللسانيات؛ وخير دليل على ذلك رسالته في دكتوراه الدولة سنة 1979 بفرنسا عن علم اللسان العام وعلم اللسان العربي، بحث في الأسس الإبستمولوجيا وكثير من أبحاثه الأخرى.

- 1د/ مصطفى غلفان –اللسانيات العربية الحديثة/ دراسة نقدية في الأسس النظرية والمنهجية- منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني –عين الشق- الدار البيضاء، ص10

- 2المرجع نفسه – ص12.

- لم يكتب عن الرجل إلا القليل النادر، بالرغم من أهمية أبحاثه والموضوعات التي كتب فيها ونوعية الطرح العلمي والمنهجي والنظر الإبستمولوجي العميق الذي يميزها، والأمثلة المدققة التي يقدمها عن الموضوعات التي يدرسها، والقراءة الهادئة المتأنية المستفيضة لها؛ مما يجعل أعماله مرجعا أساسيا لا غنى عنه في ميدان البحث اللغوي بعامة والبحث اللساني بخاصة.[1].

- عمل على تأصيل البحث اللساني العربي، وحاول مقارنته وتحديد مكانته من النظريات اللسانية المعاصرة، وتطوير هذه النظريات، بل وإيجاد نظرية لسانية عربية هي المتمثلة في اللسانيات الخليلية الحديثة.

- وقد عالج قضايا اللغة العربية رابطا إياها بالبحث اللساني المعاصر في الوطن العربي وفي العالم الغربي، وعمل على استثمار كل ذلك في تعليم اللغة العربية وتطويره، وبناء ذخيرة لغوية عربية خاصة.

وسنحاول تقديم قراءة في بعض أعماله اللسانية بغية التعريف به، وبغية تحديد أصالة خطابه وخصوصياته المميزة.

5 - 1 على مستوى البناء المعرفي:

أهم ما يميز خطاب عبد الرحمن الحاج صالح في اللسانيات أنه فقِه المصطلح وسبر أغواره وعاد إلى مصادره الأساسية ومظانه الحقيقية سواء أتعلق الأمر بالتراث اللغوي العربي أم تعلق بالبحث اللساني الغربي؛ فقد فرق بين المقامات التي تستدعي استعمال هذا المصطلح والمقامات التي لا تستدعي استعماله، الأمر الذي مكنه من وضع كل شيء في إطاره المعرفي الخاص وسياقه اللغوي اللازم، في إطار ما سماه باللسانيات الخليلية الحديثة التي بناها على منظومة من المصطلحات والمفاهيم التراثية العريقة ولكن بنظرة مستحدثة جديدة لها هوية.

1- نال هذه السنة 2010 جائزة الملك فيصل للبحث اللغوي، وهي من الجوائز المهمة في العالم العربي وفي العالم أيضا.

5 - 1-1 فما هي اللسانيات الخليلية الحديثة؟

تعد اللسانيات الخليلية الحديثة نظرية لسانية عربية جديدة تمثل امتدادا لنظرية النحو العربي الأصيلة التي وضعها الخليل بن أحمد ت175هـ وتلميذه سيبويه ت180هـ، ومن جاء بعدهما من النحاة العرب القدامى العباقرة ممن شافهوا العرب الخلص الأقحاح ابتداء من القرن الثاني الهجري وهي الفترة الخصبة في الفكر اللغوي العربي الأصيل المبدع.[1].

وحتى القرن الخامس الهجري مع عبد القاهر الجرجاني ت471هـ ويعد رائدا في مجاله المتعلق بنظرية النظم.

سميت النظرية الخليلية أو اللسانيات الخليلية وهي لا تعني الخليل وحده؛ وإنما نسبت إليه؛ لأنه هو الذي سبق غيره إلى استعمال المفاهيم الرياضية لضبط نظام اللغة ووضع علم العروض واختراع الشكل ووضع الحركات على الحروف ووضع معجم العين.

يقول الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح: «لا بد من ملاحظة هامة فإن الخليل ليس هو وحده المسؤول عن كل ما أبدعه عباقرة العلماء الأولين، فهناك من عاصره وكان عبقريا مثله ومن جاء بعده وكان عبقريا مثله وأذكر من هؤلاء الإمام الشافعي؛ فهو في أصول الفقه بمنزلة الخليل في النحو وعلوم اللسان.»[2].

وقد أثرى سيبويه ومن جاء بعده أفكار الخليل كالأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة والمازني ولاسيما ابن السراج وأبي علي الفارسي والرماني والسيرافي

1- يمكن أن نشير إلى أن الفترة الخاصة بالفصاحة العربية العفوية قد انتهت بالنسبة للمدن والأمصار بنهاية القرن الثاني الهجري، وانتهت بالنسبة للبوادي نهاية القرن الرابع الهجري. وقد قال ابن جني ت392هـ في هذا الشأن: «...وقد كنا في وقتنا هذا يقصد عصره... لا نكاد نرى بدويا فصيحا، وإن نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه لم نكد نعدم ما يفسد ذلك ويقدح فيه وينال ويغض منه» انظر –الخصائص- الجزء 2 ص5، تحقيق عمر علي النجار –دار الكتاب العربي- د.ت.

2- د/ عبد الرحمن الحاج صالح –النظرية الخليلية الحديثة- مجلة اللغة والأدب- قسم اللغة العربية وآدابها -جامعة الجزائر- العدد10 سنة1996. ص8.

والزجاجي ثم ابن جني وبعدهم بكثير الرضي الاستراباذي ت687هـ وهو من أرصن العلماء وأكثرهم أصالة... وبعد شاذا في عصره.[1].

وبهذا تعد اللسانيات الخليلية امتدادا منتقى مختارا من الآراء والنظريات التي أثبتها النحاة العرب الأولون وبخاصة الخليل بن أحمد؛ فهي في الواقع نظرية ثانية **Métathéorie**؛ لأنها في الوقت نفسه تنظير وبحث في الأسس النظرية الخليلية الأولى...[2] وقراءة جديدة لهذا التراث وإعادة صياغة لمفاهيمه الأساسية ومقارنتها بما توصل إليه البحث اللساني الحديث ومحاولة استثمار ذلك في الدراسات اللغوية العربية الحديثة.

ومن أهداف اللسانيات الخليلية الحديثة: «أنه لابدّ من الرجوع إلى التراث العلمي العربي الأصيل.. والنظر فيما تركه أولئك العلماء الفطاحل الذين عاشوا في الصدر الأول من الإسلام حتى القرن الرابع الهجري، وتفهم ما قالوه وأثبته من الحقائق العلمية التي قلما توصل إلى مثلها كل من جاء قبلهم من علماء الهند واليونان، ومن بعدهم كعلماء اللسانيات الحديثة في الغرب...»[3] وبهذا فهي تعكس بصدق الفكر الخليلي المبدع الخلاق في أسسه ومبادئه النظرية ومفاهيمه و مصطلحاته وإجراءاته التطبيقية.

5 - 1 - 2 تحديده لمفهوم الأصالة:

أقصد بمفهوم الأصالة جملة الخصوصيات المميزة للسانيات الخليلية الحديثة من حيث المبادئ النظرية ومستويات التحليل وتجلياتها في مفاهيم أساسية أقيمت عليها وما نتج عنها من تأصيل للمصطلح اللساني التراثي والوعي بالمصطلح اللساني الغربي الحديث والعمل على توظيفه في البحث

1- انظر د/ عبد الرحمن الحاج صالح –الأصالة والبحوث اللغوية الحديثة- حوليات جامعة الجزائر- العدد 6 –الجزء 1 سنة 1992/1993، ص41-33.

2- انظر –د/ محمد صاري –محاولات تيسير النحو قديما وحديثا : دراسة تقويمية في ظل علم تدريس اللغات- دكتوراه دولة، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة، سنة 2003، مخطوطة، ص 138.

3- د/ عبد الرحمن الحاج صالح - الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية، ندوة اتحاد الجامعات العربية – الجزائر، سنة 1984، ص1.

اللساني العربي الحديث، وغير ذلك مما يتعلق بأصالة اللسانيات الخليلية الحديثة.

وإذ يتعذر عليَّ أن أتناول أصالة الخطاب الخليلي المتميز؛ لأنه يحتاج إلى بحث أكاديمي يأخذ حقه من الوقت ومن التوثيق وإجادة القراءة ويحتاج إلى زاد معرفي لساني متميز عميق وإلى حنكة منهجية رصينة، فإن أصالة اللسانيات الخليلية تكمن فيما تميزت به من نزعة علمية واتجاه منهجي وعبقرية في الاكتشاف والاختراع.

إن الأصل في الحقيقة، هو الذي يبتعد عن التقليد لا كما هو حاصل في وقتنا بالنسبة للبحث اللساني العربي الحديث وليس في اللسانيات وحدها؛ وإنما في مختلف فروع المعرفة فيوجد تقليد واضح في كل شيء دون وعي وتمحيص. يقول الأستاذ الحاج صالح: «والأصالة في زماننا هذا... هي الامتناع من تقليد الغربيين خاصة، ولا أقصد من لفظ التقليد أكثر مما قصده علماؤنا قديما فهو اتباع الإنسان لغيره فيما يقول أو يفعل معتقدا الحقيقة فيه من غير نظر وتأمل في الدليل من كتاب التعريفات للشريف الجرجاني أو بعبارة أخرى هو اتخاذ أقوال الغير كحقائق لا تقبل الجدال وعدم الإتيان بأي ابتكار. وهذا لا يعني أن الإنسان مجبر على ابتكار جميع ما عنده. هيهات! فإن هذا يستحيل كما يستحيل أن يعيش الإنسان بالاعتماد على ما يصنفه هو وحده أو يرقى به العلم بدون أن يراعي ما ابتكره الآخرون... إلا أن الأصالة تكمن في عدم الاطمئنان مقدما وقبل النظر إلى كل ما يصدر من الغير حتى يقوم الدليل الذي يحمل الإنسان بل يجبره على تقبل أقوال غيره»[1]

ونضيف إلى ما قلنا **مسألة أخرى و هي دفاعه المستميت عن أصالة النحو العربي وعدم تأثره بمنطق أرسطو**؛ من خلال مقاله القيم: النحو

1- د/ عبد الرحمن الحاج صالح – بحوث ودراسات في اللسانيات العربية- الجزء الأول، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية – موفم للنشر، الجزائر سنة 2007، ص 11/12.

العربي ومنطق أرسطو؛ الذي كتبه سنة 1904 ونشره في العدد الأول من مجلة كلية الآداب بجامعة الجزائر، أي لما كان في السابعة والثلاثين من عمره.

فقد بين بالأدلة التاريخية والعقلية أن النحو العربي هو في جوهره لغوي محض؛ ولهذا فإن مفهوم الإفادة -في الجملة المفيدة- هو أقرب إلى علم الإعلام منه إلى المنطق. وعلى هذا يكمن الغلط في التخليط بين جانبين اثنين لوظيفة الكلام:

- **الجانب الأول:** يتعلق باللغة باعتبارها أداة تبليغ بلفظ وضع لمعنى، أي بنية متعارف عليها واللغة كأداة للتحديد والحكم والبرهان، فاللغة لها هذه الوظيفة أيضا، وأغراض النحاة الأولين هي دراسة البنى المتعارف عليها وتمييزها عن غير المتعارف عليها مع كيفية تأديتهم للمعاني.

أما زعمهم أن العرب قد اقتبسوا التقسيم الثلاثي للكلام من أرسطو، فيجب قبل كل شيء أن نعرف أين وفي أي كتاب صرح أرسطو بذلك. ثم غرض النحوي من لفظي الاسم والفعل غير غرض أرسطو منهما؛ لأنه يرى فيهما ما يسميه الموضوع والمحمول والمجموع يكون دائما حكما عقليا ولم يهتم أرسطو بالجانب اللغوي لهما.

- **وأما الجانب الثاني:** فتاريخي؛ فأول تأثير تلمسه هو في زمان المبرد ت285هـ وتلاميذه وخاصة ابن كيسان وابن السراج في نهاية القرن الثالث الهجري.[1]

استعرض عبد الرحمن الحاج صالح بأمانة الآراء المختلفة التي تناولت علاقة النحو العربي بمنطق أرسطو مركزا على علوم اللسان وبخاصة منها النحو. من ذلك ما جاء في قوله.

«ولقد أجاب غير واحد من المستشرقين في أواخر القرن الماضي وصدر القرن الحالي العشرين بأجوبة متفاوتة، وإن اتحدت أحيانا مناحيها، متوافقة الغاية في أكثرها وإن اختلفت سبل تحصيلها؛ فمن مقلٍّ في احتجاجه لا يذكر

1- انظر –المرجع نفسه- ص42.

إلا ما يظنه كافيا لإثبات تأثير اليونان، ومن مكثر في البرهنة وذكر الشواهد. والغريب المقلق أن أشهر هذه الآراء التي ألبست لباس البحث النزيه هي التي تنفي كل طرافة للمناهج العربية في النحو، وتنكر أن يكون النحاة العرب أخرجوا شيئا جديدا لعجزهم أو عجز البيئة الاجتماعية العربية على الإتيان بمثل هذا الصنع المبتدع[1]

فذكر «أنياس جويدي **I.Guidi**» الذي لم يأت ببرهان شاف واف يؤكد تأثر النحو العربي بالمنطق اليوناني. وذكر «أدالبير ماركس **A.Merx**» الذي طرق الموضوع وأفاض فيه كاسيا بحثه بأبهى الأكسية العلمية العامل الذي أدى إلى التأثير في الدارسين الذين جاؤوا بعده، نذكر على سبيل المثال «دي بور **De Boer**» الذي اهتم بالتأريخ للفلسفة الإسلامية مؤكدا على أن أصالة النحو العربي تعود إلى أرسطو. وذكر «جورج سارطون **G. Sarton**» صاحب المدخل إلى تاريخ العلم الذي عدَّ تلك الأقوال حقائق ظل يرددها في أبحاثه.

كما عرض آراء المنصفين من الدارسين الغربيين لهذه القضية مثل رأي «إينوليتمان **E. Litman**» الذي أورده أحمد أمين في إحدى محاضراته، وقد ذهب مذهبا وسطا وهو أن العرب قد أبدعوا علم النحو في البداية وأنه لا يوجد في كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والذين تقدموه.[2] دون أن ينس جهود «لويس ماسينيون **L.Massignon**» النزيهة.

ولم ينس آراء بعض اللغويين العرب المشهورين من أمثال الدكاترة: إبراهيم مذكور في مقاله: «منطق أرسطو والنحو العربي»، وإبراهيم أنيس في كتابه: «من أسرار اللغة»، ومهدي المخزومي في كتابه: مدرسة الكوفة»، وأنيس فريحة في كتابه: «من أسرار العربية»، وغيرهم من الدارسين العرب الذين يعدون دارسين أعلاما في الوطن العربي، كثيرا ما أثروا في الناشئة بعدهم وبخاصة من الذين استغلقت عليهم النصوص باللغة الأجنبية فتعذر عليهم

1- المرجع نفسه –ص 43/44.

2- انظر –المرجع نفسه- ص 43.

أن يمارسوا القراءة بأنفسهم. نورد في هذا الشأن ما قاله الدكتور إدريس مقبول:

«وقد تسابق نفر من المثقفين والدارسين العرب، خاصة إخواننا المشارقة إلى التقاط هذا الرأي –يقصد رأي مركس- وترديده بل والدفاع عنه أكثر من أصحابه... وتبعا لهذه الموجة الفكرية، بدأ يظهر في الأفق شبه إجماع على أن النحو العربي ما هو إلا ظل من ظلال الفلسفة اليونانية.»[1].

وإذا كان هؤلاء الدارسين العرب قد أكدوا العادة المتأصلة في أكثرهم وهي الانبهار بالآخر وترديد مقولاته دون بذل جهد في القراءة ودون تأن وترو وإعمال فكر، مسلّمين بصحتها مع أن المتأمل فيها يجدها قد أصابت الفكر اللغوي العربي في المقتل!فإن الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح قد شذّ عنهم وقدم قراءة نوعية عميقة للفكر النحوي العربي منذ ستٍ وأربعين سنة، تتبع من خلالها آراء مركس رأيا رأيا، وفنّد حججه حجة حجة مقدّما الأدلة والبراهين والحجج الدامغة سواء أكانت تاريخية أم عقلية، وذلك بالرجوع إلى كتاب أرسطو نفسه[2].

بهذا البحث وبغيره، دافع عبد الرحمن الحاج صالح عن أصالة النحو العربي وبين أصالة خطابه هو نفسه، وبيَّن الفرق بين القراءة النوعية ذات الأصالة وبين القراءة المهرولة المقلدة المرددة لمقولات الغير الجازمة بصحتها.

5 - 1 - 3 تحديده لمكانة علم اللسان العربي من علم اللسان العام:

من بين القضايا الجد مهمة التي تبرز في خطاب عبد الرحمن الحاج صالح كمنجز لساني متميز، تحديده لمكانة علم اللسان العربي من علم اللسان العام، وذلك لكونه قد استوعب التراث اللغوي العربي القديم وفهمه وتمثله

1- - إدريس مقبول –الأسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه- عالم الكتاب الحديث – إربد، الأردن –جدارا للكبات العالمي –عمّان –الأردن، سنة 2007. ص 15/16.

2- - لسنا هنا بصدد عرض هذه الحجج وعرض بحث الأستاذ الحاج صالح كله؛ وإنما نكتفي بالإشارة العابرة إليه حسب ما يقتضي الموضوع، وندعو القارئ الكريم ألا يفوّت على نفسه قراءة هذا البحث المتميز؛ لأنه سيفتح له كثيرا من الآفاق في البحث اللغوي ويصحح كثيرا من الأخطاء.

من خلال القدرة على التعامل النوعي مع النصوص والمفاهيم التي تؤطرها في مختلف سياقاتها وملابساتها الفكرية وتحليلها التحليل العميق ومقارنتها بما توصل إليه البحث عند علماء اللسان الغربيين، وفهمه بعمق وتروٍ وموضوعية، فلم ينقطع عن التراث ويرى أن كل شيء أو نموذج جميل يكمن في الغرب ولم يتقوقع على نفسه في التراث ويراه مخزنا يحفظ فيه كل النماذج والأشياء القديمة، وإنما مكنته معرفته الرصينة بالتراث اللغوي العربي وإجادته اللغات الأجنبية أن يقرأ بحكمة وتبصر[1]. أن يقرأ بعينه لا بعيون الآخرين و يتحدث بلسانه لا بألسنة الآخرين ويطلع على المعرفة اللسانية في أصولها سواء أكانت عربية أم غربية ويحلل ويقارن ويقدم البراهين وهو واثق من نقسه؛ من ذلك إشارته إلى حلقة العالم الفرنسي»سلفستردي ساسي 1758-1838» في علوم اللسان وقد ضمت أهم اللسانيين الذين نالوا شهرة في القرن التاسع عشر في علوم اللسان، يقول:

«وقد امتاز هذا الباحث الجليل القدر عن سابقيه وحتى عمن يأتي بعده بمعرفة واسعة جدا للغات الشرقية وما نشره أهلها قديما في الدراسات اللغوية وكان متضلعا بالخصوص في علوم العربية فهو الذي كوّن «شيزي» في ‹ اللغة السنسكريتية › والأخوين «شليجل» والأخوين «جريم» وفرانس بوب وفون هوميولدت وغيرهم كثيرون.

وأهم شيء اكتسبه هؤلاء من دروس «دي ساسي» هو اطلاعهم من خلال دراستهم للعربية واللغات السامية الأخرى على المفاهيم اللغوية والنحوية العربية التي كانت تنقصهم في ثقافتهم الفيلولوجية التقليدية وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى النحو والصوتيات.»[2].

---

1 - ليس شرطا أن من يعرف اللغات الأجنبية إلى جانب العربية بإمكانه أن يقرأ قراءة نوعية، وإن كان ذلك ضروريا فإنني أرى أن المسألة تكمن في العقل المتوقد الذي يشتغل بشكل إيجابي لخدمة قضاياه المصيرية، ومنها القضية اللغوية، فكثيرون هم الذين يعرفون اللغات الأجنبية إلى جانب العربية ولكنهم لا يمتلكون هذه العزيمة، بل وأكثر من ذلك يعملون على تكريس التخلف.

2- د/ عبد الرحمن الحاج صالح –مدخل إلى علم اللسان الحديث: القرن التاسع عشر عصر التاريخ؛

ثم يضيف الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح عن دي ساسي الإشارة إلى إنتاجه في نحو العربية وما ترجمه إلى الفرنسية من كتب النحو والتجويد، فذلك يدل بوضوح على إدراكه –في معظم الأحيان- مفاهيم ومناهج النحاة العرب القدامى. ثم يفتح هامشا يوضح فيه للباحث في اللسانيات أن تلك الصفات التي تميزبها دي ساسي، لا يعني أنه قد نفذ إلى عمق التراث اللساني العربي وعرف مقاصد النحاة العرب، يقول:

«رغم الذي قلنا من معرفة دي ساسي لمقاصد النحاة العرب فإن الكثير مما تركوه من التحليلات العميقة والمفاهيم الدقيقة ما كان أن يفهم في ذلك العصر عند الغربيين بعد في هذا النوع من البحث ونخص بالذكر مناهج الوصف البنوي ومفهومي الأصل والفرع والطريقة التصريفية وكذلك مفاهيم الصوتيات العربية التي هي مخالفة تماما لمفاهيم اليونان والهنود أيضا، وذلك مثل مفهوم الجهروالهمس.»[1].

ولم يتوقف عبد الرحمن الحاج صالح عند هذا الحد وإنما حاول أن يوضح تأثير النحو العربي وفلسفة اللغة عند العرب في النظريات اللغوية الغربية؛ فمن ذلك إشارته إلى بعض المفاهيم اللغوية العربية التي ظهرت عند الغربيين ولا أثرلها في التراث اليوناني اللاتيني.

فقد دخلت المفاهيم اللغوية العربية أوربا بواسطة الفلسفة العربية التي نقلت إليهم مع الكثيرمن كتب العلوم ابتداء من القرن العاشروالحادي عشر الميلاديين بفضل مجموعة من المترجمين في الأندلس وصقلية وأوربا.

ومن هؤلاء المترجمين كما ذكر الأستاذ الحاج صالح « Adelord of Bath» المولود في 1070م و «J.De sèvilla» و «Herman» الدالماتيو Gundi solvi و«R.of chester» و «R.Bacon» وروجربيكون و«M. Scot» وغيرهم وأكثرهم كانوا من العلماء، ذكرهم بهذه الصفة وأثنى عليهم لمعرفتهم اللغات. ولم ينس

الداروينية الغوية والإيجابية التاريخية- مجلة اللسانيات، المجلد 2، العدد 1. سنة 1972. ص9.

1- المرجع نفسه – ص 9.

الأستاذ الحاج صالح الإشارة المهمة وهي: إهمال علماء عصرنا هذه الترجمات التي تركها هؤلاء العلماء المذكورون، وإنما أسقطت من الدراسة ولا أحد حاول حصرها ويعرف بذلك ماهية الأفكار والنظريات والمناهج العلمية العربية بالدقة العلمية المطلوبة، التي دخلت أوربا ومتى وقع ذلك بالضبط وغير ذلك مما هو مهمل إهمالا كاملا.[1].

ومن المفاهيم اللغوية العربية التي انتقلت إلى أوربا، نذكر مفاهيم المصطلحات الآتية:

- **مفهوم علوم اللسان:** بين الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح كيفية انتقال هذا المفهوم إلى أوربا، والسبب الأساسي في ذلك ما اطلع عليه «روجر بيكون Rogrer Bacon» المتوفى سنة 1214م في كتاب الفارابي ت339هـ «إحصاء العلوم» الذي كان قد ترجمه إلى اللاتينية «G.Germonenci» في القرن الثاني عشر للميلاد.

قال بيكون: «إن النحو هو في جوهره واحد في جميع اللغات وإن كانت تتنوع تنوعا عرضيا». وقال الفارابي: «وهذه ليست توجد في العربية فقط بل في جميع الألسنة... فعلم النحو في كل لسان ينظر فيما يخص تلك الأمة وفيما هو مشترك له وغيره...» ص 61 **إحصاء العلوم**.

بعد أن أورد القولين يؤكد الحاج صالح بأن أول من قال بذلك في تاريخ الإنسانية هو الفارابي، ولم يسبقه إلى ذلك إلا بعض النحاة العرب القدامى كالمبرد وأتباعه وبخاصة ابن السراج والزجاجي، إذ صرح بأن الأقسام الثلاثة للكلم هي موجودة في جميع اللغات. وربما يكون الفارابي قد استوعب ذلك من شيخه ابن السراج وعمّمه بعد ذلك على دراسته لجزء كبير من اللغة. ومن ثم جاءت فكرة الكليات اللغوية، التي انتشرت بعد ذلك في أوربا وشكلت

1- انظر - د/ عبد الرحمن الحاج صالح –بحوث ودراسات في اللسانيات العربية- الجزء الثاني- موفم للنشر –الجزائر، سنة 2007، الصفحة 272 وبخاصة الهامش رقم 12.

للنواة لما سموه «بالنحو العام» «grammaire générale أو-universal gram-mar» الذي ألف فيه «جيمس هاريس J.Haris»[1] الإنجليزي كتابه:

Hermes or philosophical inquiry Comering Uiversal grm-mar, London, 1751»"

ثم يشير إلى أن التسمية الحديثة «Sciences of language» ما هي إلا ترجمة للعبارة العربية المشهورة «علم اللسان» لتي استعملها الفارابي.[2].

- **مفهوم العامل:**

يعد العامل مفهوما مأنوسا عند النحاة العرب، وقد ظهر كما أورد ذلك الأستاذ الحاج صالح –أول مرة في تاريخ أوربا في القرن الثالث عشر الميلادي، مفهوم العامل والعمل، واستعمل في ذلك اللفظ اللاتيني REGERE ومعناه الأصلي هو التدبير والتحكم في الشيء وطُبق على الفعل الذي جُعل هو السبب في ظهور الإعراب... يقول بطرس هلياس الفرنسي «في الفرنسية -Pierre Hé-lie»: «العمل معناه أن تتحكم كلمة في أخرى في داخل تركيب حتى يكتمل هذا التركيب» وقد كتب لهذا المفهوم وهذا اللفظ النجاح فاطّرد استعماله في كثير من كتب النحو باللغات الأوربية... وبظهور البنوية ترك من جديد إلى أن أحياه منذ عهد قريب تشومسكي باسم «goverment» باللغة الإنجليزية، ويعتقد الأستاذ الحاج صالح أن تشومسكي آخذ هذا المصطلح من مصطلحات النحو العربي وهو منقول من النحو العربي[3]...

1- ليس زليغ هاريس الأمريكي الذي يعد أول من استعمل مصطلح خطاب **discours** وتحليل الخطاب **Analyse de discours** سنة 1952.، محاولا تجاوز نحو الجملة، عاملا على تطوير نظرة أستاذه بلومفيلد للسانيات التوزيعية.

2- انظر في كل هذا عبد الرحمن الحاج صالح –بحوث ودراسات في اللسانيات العربية- الجزء الثاني، ص 273

3- انظر: المرجع نفسه- ص 274، الهامش رقم 17.

بالإضافة إلى مفاهيم لغوية أخرى مثل المسند والمسند إليه ومفهوم الإضمار الذي أدخله اللغوي الإسباني «سانكتيوس Sanctues» في القرن التاسع عشر الميلادي إلى اللغات الأوربية وسماه «ELLIPSE».[1]

تؤكد هذه الأمثلة قدرة الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح اللغوية بالعربية وباللغات الأخرى، ومدى استيعابه للمصطلحات والمفاهيم وتقليبها على أوجهها المختلفة قبل الاطمئنان إليها واستعمالها.

5 - 1 - 4 تأريخه لعلم اللسان البشري:

نلاحظ مكمن الأصالة في خطاب عبد الرحمن الحاج صالح من خلال أبحاثه المختلفة التي أرّخ بها للسانيات ونشرها تباعا في مجلة اللسانيات منها:

- مدخل إلى علم اللسان الحديث1، تحليل ونقد لأهم مفاهيمه ومناهجه.[2]
- ومدخل إلى علم اللسان الحديث2، علم اللسان ما قبل القرن التاسع عشر.[3]
- ومدخل إلى علم اللسان الحديث3، القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.[4]
- ومدخل إلى علم اللسان الحديث4، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية.[5]
- مدخل إلى علم اللسان الحديث، الباب الثاني في المذاهب والنظريات اللسانية الحديثة.[6]

1- - انظر: المرجع نفسه- ص 275 وما بعدها.

2- مجلة اللسانيات، المجلد الأول –العدد الأول ، جامعة الجزائر، 1971.

3- مجلة اللسانيات، المجلد الأول –العدد الثاني ، جامعة الجزائر، 1971.

4- مجلة اللسانيات، المجلد الثاني –العدد الأول ، جامعة الجزائر، 1972.

5- مجلة اللسانيات، العدد الرابع، جامعة الجزائر، 73/1994.

6 - مجلة اللسانيات، العدد السابع، مركز البحوث العلمية والتقنية لتطوير اللغة العربية- الجزائر، سنة 1997.

بالإضافة إلى رسالته في دكتوراه الدولة في علم اللسان العام وعلم اللسان العربي وهي لا تزال مخطوطة في جامعة السربون بباريس في أكثر من 1000 صفحة كما سبقت الإشارة إلى ذلك.[1]

إن من يقرأ هذه الأعمال يجد الرجل دارسا حصيفا يتميز بعين ثاقبة ورؤية سديدة وفكر عميق للمسائل اللسانية المختلفة، وحضور شخصية عالم فذ له قدرات وإمكانات متميزة في علوم اللسان.

فقد بين أهمية علم اللسان وكيف تشعبت فروعه وتحددت مفاهيمه واختلاف كثير من العلماء واللغويين في تحديد هوية هذا العلم، ولعل أكثر ما جلبنا إلى هذا الدارس كثرة اطلاعه على علوم الآخرين مما أفاده بالعديد من المعارف، وقد ساعده في ذلك حذقه وتحكمه في اللغات الأجنبية إلى جانب العربية، وأكثر من هذا كله اهتماماته العظيمة بمجهودات العلماء العرب القدامى، والقارئ لمقالاته وأبحاثه يلاحظ الإشارات الكثيرة للنتائج العظيمة التي توصل إليها العلماء العرب القدامى في مجال علوم اللسان.

ومدى أهمية ذلك في التأثير على البحث الغربي أيضا وبذلك أبرز جهود علمائنا العرب في التأريخ لعلم اللسان البشري الذي طالما تم إغفاله وعدم التطرق إليه عن قصد أو عن غير قصد.

فجورج مونان في تأريخه لعلم اللسان لم يشر إلى مجهودات العرب إلا في أسطر قليلة، ولعل ذلك يعود إلى عدم معرفته باللغة العربية وحتى من الدارسين العرب يوجد من لم يتطرق إلى الفترة العربية في التأريخ لعلم اللسان البشري أسوة بالغربيين الذين لا نظن أنهم أغفلوا جهود العلماء العرب عفو الخاطر، ويأتي عبد الرحمن الحاج صالح ليفند ما أورده جورج مونان في تأريخه للسانيات قبل القرن التاسع عشر فيقول –أي الحاج صالح-: «ولابد ههنا من تفنيد ما قاله مونان بأن النحاة العرب كانوا يجعلون من اللغة العربية أمّ اللغات وإنها لغة أهل الجنة بل لغة الله» أما القول الأول

1- تم طبع هذه الرسالة مؤخرا باللغة الفرنسية.

والثاني فما رأينا أحدا من النحاة الأوائل الحقيقيين المجتهدين يقوله أو يجزم به بل وجدناه عند بعض المؤرخين والمفسرين ممن كان يجمع كل ما يسمعه بدون نقد مثل ابن إسحاق فاعتمدوا الأساطير الفلكلورية التي كان يروجها القصاص وكان أشد الناس كراهية للقصاص هم النحاة أنفسهم أنظر كلام المبرد الذي رواه ابن السراج في أصوله، الورقة 95 ط، والمزهر 2/232 وكان في ضمن هذه القصص والخرافات ما نقل أيضا من الإسرائيليات، أما النحاة واللغويون فكانوا يمسكون عن ذكر مثل هذه الأشياء وقصارى ما قال البعض منهم هو أن «أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل» عن أبي عبيدة، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، 3/292 والمراد بالمبينة هذه التي نزل بها القرآن الكريم أما عربية القبائل البائدة مثل جُرْهُم فكانوا يقولون «إنها عربية أخرى غير كلامنا هذا» المزهر، 1/433، أما القول الثالث فهو شنيع وأشنع من هذا أن ينسب إلى علماء العرب فإن هذا لم يقله أحدد من العلماء المسلمين لأنه تجسيم محض.

فإذا جاز للمسلم أن يقول عن القرآن إنه كلام الله أي خطاب موجه إلى البشر وأن يعتقد بالتالي أن فعل الكلام صفة لذات الله كسائر الصفات التي يذكرها سبحانه وتعالى في كتابه العزيز فإنه يجوز أن يقول إن العربية أو الآرامية هي لغة الله لمجرد نزول الوحي بهاتين اللغتين لأن اللغة في ذاتها وسواء قلنا إنها من تواضع البشر أم من الله فهي آلة مسخرة للتبليغ ومن ثم خلقت لينتفع بها الناس فإذا خاطب سبحانه الناس بوساطة أنبيائه فإنه تعالى يخاطبهم بما يفهمون وقد قال جل من قائل: **«وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم»**[1]

يلاحظ المتأمل في هذا النص الطويل أنه هامش من الهوامش التي كثيرا ما يفتحها الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح في أبحاثه ودراساته وهي علامة

1- انظر - د/ عبد الرحمن الحاج صالح –مجلة اللسانيات، المجلد الثاني، العدد الأول، جامعة الجزائر 1971، ص 5و6، هامش رقم 1.

دالة على الضبط المنهجي والصرامة العلمية التي تميز خطابه اللساني. ويلاحظ أيضا أنه قدم براهين واضحة في تفسير ما زعمه جورج مونان؛ فالنص كله عبارة عن حجج دامغة مدعّمة بالوثائق والأدلة النقلية والعقلية المقنعة.

ولم أجد فيما قرأت من أرخ لعلم اللسان مثله من العرب وحتى من الأجانب الذين يغفلون جهود العلماء العرب في علوم اللسان كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

5 - 2 على مستوى البناء المنهجي:

يتأسس هذا المستوى على جهاز مفاهيمي خاص يتجذر في فكر الخليل بن أحمد وأتباعه وذلك من خلال توظيف الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح لكمّ مصطلحي كيفي يميز خطابه من ذلك:

5 - 2 - 1 مفهوم الباب:

ويتعلق باللفظ والمعنى إفراد وتركيبا في كل مستويات اللغة؛ فقد أطلق سيبويه هذا المفهوم على المجموعات المرتبة من الحروف الأصلية للكلمة الثلاثية مثل: ض.ر.ب وغيرها، وكذلك على مستوى أبنية الكلمة؛ أي أوزانها، وكذا الشأن بالنسبة لمستوى التراكيب؛ فقد ذكر أن سيبويه سمى أبوابا مثل: باب «حسبك به»[1] وباب «لقيا وحمّدا»[2]

إن الباب عبارة عن مجموعة من العناصر تنتمي إلى فئة أو صنف وتجمعها بنية واحدة.» [3] وهو عند النحاة الأولين يعادل المجموعة في الرياضيات، فالباب الذي ليس فيه عنصر؛ أي المجموعة الخالية كما يقول المعاصرون، هو المهمل عند الخليل، يعني الشيء الذي يقتضيه القياس ولم يأت به الاستعمال، وقد يحتوي الباب على عنصر واحد وذلك مثل: «شيء نسبة إلى شنؤة»[4]

1- سيبويه، الكتاب، طبعة بولاق –الجزء 1، ص 30

2- نفسه، ص 186.

- 3د/ عبد الرحمن الحاج صالح –منطق النحو العربي والعلاج الحاسوبي للغات، بحث مخطوط، ص 186

4- انظر - د/ عبد الرحمن الحاج صالح –النظرية الخليلية الحديثة، عدد 10، ص 90.

5 - 2 - 2 مفهوم المثال le schème générateur:

وهو مفهوم لا مقابل له في اللسانيات الغربية إلا عند «Jean Galpin»، وهو متخصص في الأفازيا أستاذ بجامعة ران الفرنسية؛ فقد تفطن إلى أن المريض يفقد القدرة على التعرف وعلى الانتقال مثلا: من «كتاب» إلى «بالكتاب» أو «بالكتاب المفيد».[1]

ويعد المثال حدّا صوريا إجرائيا تتحدد به العناصروترسم العمليات التي يتولد بها العنصر اللغوي في واقع الخطاب، إنه مفهوم منطقي رياضي محض ينطبق على مستوى جميع مستويات اللغة في أدناها؛ كمستوى الكلمة، وفي أعلاها كمستوى التراكيب؛ فمثال الكلمة «هو مجموع الحروف الأصلية والزائدة مع حركاتها وسكناتها كل في موضعه وهو البناء أو وزن الكلمة مثال الكلمة وفي مستوى اللفظة: مجموع الكَلِم الأصلية والزائدة مع مراعاة دخول الزوائد وعدم دخولها العلامة العدمية كل في موضعه. وهو مثال اللفظة اسمية كانت أو فعلية.» [2]

5 - 2 - 3 - الوضع والاستعمال:

إن اللغة عبارة عن مجموعة منسجمة من الدوال والمدلولات ذات بنية عامة ثم بنى جزئية وهذا يسمى الوضع؛ أي ما يثبته العقل من انسجام وتناسب بين العناصر اللغوية وعلاقاتها الرابطة وبين العمليات المحدثة لتلك العناصر على شكل تفريعي أو توليدي من الأصول إلى الفروع. أما **الاستعمال فهو كيفية إجراء الناطقين لهذا الوضع في واقع الخطاب**، فيختار المتكلم ما يحتاجه من الدوال للتعبير عن أغراضه فيميز بين ما هو راجع إلى القياس وبين ما هو راجع إلى الاستعمال؛ بمعنى أنه يستعمل اللغة حسب ما تقتضيه

-1 من محاضرة ألقاها الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح بعنوان: «النظريات اللسانية الحديثة والنظرية الخليلية»، وذلك يوم الإثنين 28/06/2004 بجامعة تلمسان، الجزائر

2- د/ عبد الرحمن الحاج صالح –النظرية الخليلية الحديثة- العدد 10، ص 95، وانظر –للمؤلف نفسه- العلاج الآلي للنصوص العربية والنظرية اللغوية، بحث مخطوط، ص 2.

أحوال الخطاب، لأن قوانين الاستعمال ليست هي قوانين الوضع أو القياس ولذلك فإن اللفظ والمعنى في الوضع يختلفان عنه في الاستعمال.[1]

5 - 2 - 4 - القياس:

وهو حمل شيء على شيء لجامع بينهما؛ أي حمل الكلم بعضها على بعض إذا كانت تنتمي إلى جنس واحد وهو الذي يسمى في المنطق الرياضي **النظير على النظير Bijection** وبذلك تبرز البنية التي تجمع كل الكلمات بعضها على بعض.

يقول الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح: «والذي يجهله معاصرونا هو المثال أي الصيغة التي تعوّد الناس على العثور عليها في مستوى الكلم فقط له أيضا نظير في مستوى التراكيب فقد حملوا الجمل بعضها على بعض فاكتشفوا أن كل الجمل العربية تتكون من عنصر يتحكم في جميع العناصر الأخرى فسموه العامل وأن له معمولين أساسيين ولا يجوز أبدا أن يتقدم المعمول الأول الذي لا يستغنى عنه عامله...»[2]

5-2-5 - الأصل والفرع:

تأسس التحليل اللغوي عند العلماء العرب القدامى على مبدأ الأصل والفرع؛ فميزوا الأصل عن الفرع، فالأصل ما يبنى عليه ولا يبنى على غيره ويمثل النواة أو العنصر الذي يستقل بنفسه ولا يتغير؛ أي إنه يوجد في الكلام وحده ولا يحتاج إلى علامة أخرى تميّزه عن فروعه فله العلامة العدمية[3] أما الفروع فمتغيرة متعددة يتعلق وجودها بالأصل وبصفاتها الذاتية[4]، هذا

1- انظر - د/ عبد الرحمن الحاج صالح، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرّسي اللغة العربية – مجلة اللسانيات- عدد 4، سنة 1973 /1974، ص 26.

2- د/ عبد الرحمن الحاج صالح –النظرية الخليلية الحديثة- عدد 10، ص 95.

3- تعني أن الكلمة موجودة بمعناها ولكنها مختفية غائبة في مظهرها اللفظي المحسوس، وتظهر كذلك عند مقابلتها بغيرها في الاستبدال إذ يظل موقعها فارغا يرمز له بالعلامة العدمية Ø. انظر د/ خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات – ص 92.

4- انظر - د/ عبد الرحمن الحاج صالح –المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية في العالم العربي- ضمن ندوة تطور اللسانيات في العالم العربي –الرباط 1987، ص 6. وانظر رسالته في دكتوراه

وتوجد أمثلة أخرى مثل مفهوم الانفصال والابتداء واللفظة والكلمة والعامل والموضع والاستقامة في الكلام والحركة والدوال والكلم وأبنية الكلام وغيرها مما يحتاج إلى دراسة مستقلة بذاتها تفيه حقه في الوصف والشرح والتفسير والتعليل والتمثيل والمقارنة.

إنها مصطلحات[1] أصيلة تعبر بدقة وصرامة ووضوح عن مفاهيم[2] لسانية خليلية أصيلة وتحيط بها إحاطة جامعة مانعة، وإذا كانت هذه المصطلحات قد حافظت على صيغتها اللفظية عند المتأخرين من النحاة[3]، فإن كثيرا من مفاهيمها قد حرّفت عن محتواها الخليلي الأصيل مما أدى إلى كثير من التخليط المعرفي والمنهجي في الدراسة اللغوية «فالمسند والمسند إليه عند سيبويه غير المسند والمسند إليه عند المتأخرين، وهما غير المبني والمبني عليه وبناء كلمة على أخرى في الإسناد غير الإسناد والتفريع والشغل كما يظنه المتأخرون. والكلمة عند سيبويه غير الكلمة عند ابن مالك، وكذلك لفظة اللغة والكلام وغيرهما من الألفاظ.

إن الكلمة عند سيبويه، ‹اسم وفعل وحرف جاء بمعنى ليس باسم ولا فعل› وبما أن الحركات هي أبعاض لحروف المد فإن الحركات الإعرابية عنده، هي أيضا كلمات، وكل ما يمكن أن يقطع في درج الكلام مما يدل على معنى فهو كلمة، وليس كذلك عند ابن مالك؛ فإنه يحددها هكذا: ‹لفظ مستقل دال بالوضع تحقيقا أو تقديرا أو منوب معه›؛ وعلى هذا القول الأخير فإن قولنا

الدولة:
Linguistique générale et linguistique Arabe, tome 2, P 240

1- نعني بالمصطلح اللفظ الدال على المفهوم ويقابل في اللغة الأجنبية **terme** .

2- نعني بالمفهوم المحتوى الذي يعبر عنه المصطلح ويقابل في اللغة الأجنبية **Notion**، ويوجد من يترجمه بـ**Concept** الذي هو التصور بمعنى ارتسام خيال الشيء في الذهن برأي الفارابي.

-3 هم النحاة الذين عاشوا في عصر الانحطاط الفكري العربي الذي أغلق فيه باب الاجتهاد وجمدت فيه الأفكار وانحرفت عما كانت عليه عند النحاة الخليليين حيث كان بينهم فرق في النزعة العقلية ومناهج التحليل والاتجاه العلمي.

بَعْري منسوب إلى البعرة كلمة واحدة، وقد سماه ابن يعيش والرضي لفظة وهما كلمتان عندهما وقد أصابا في ذلك.» [1]

وهكذا تبرز أصالة اللسانيات الخليلية الحديثة من خلال أصالة الخطاب اللساني عند الأستاذ الحاج صالح الذي أسس أبحاثه اللسانية المختلفة على المفاهيم اللغوية العربية الأصيلة، وعمل بذلك على تأصيل المصطلح العربي التراثي بمقارنته من المفاهيم اللسانية الغربية واختيار نتائجه وتبيين نجاعته، وكذلك الوعي بالمصطلح الغربي الحديث والعمل على توطينه في اللسانيات العربية بما يتناسب مع السياقات المعرفية التي نشأ فيها من ذلك مثلا: المصطلح الأجنبي **bain linguiste** ، فقد ترجم بالحمّام اللغوي؛ وهي ترجمة لا تؤدي المعنى الذي ينبغي، وترجمه الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح بـ«**الانغماس اللغوي**»؛ لأن العرب القدامى كانوا يأخذون أبناهم إلى البوادي ليتشربوا اللغة العربية من أصحابها العرب الخلص في بيئتها الصافية ولينغمسوا في بحر أصواتها وهنا تكمن الأصالة.

وكذلك مصطلح **Situation**: ترجم في كثير من الكتابات اللسانية والنقدية بـ: وضعية وحالة وموقف وظرف وسياق... وأعاده هو إلى المفهوم العربي الأصيل الذي تدل عليه كلمة «مقام» في البلاغة العربية على وجه الخصوص.

وكذلك **مصطلح Code**: فقد ترجم إلى شفرة ونظام ورمز وترميز والتقنين والقانون والقيد والاتفاق ويأتي فيترجمه إلى «**وضع**» لأن اللغة العربية وضع واستعمال والأمثلة من هذا النوع كثيرة وتصلح بحثا مستقلا بنفسه.

كل هذا لأن الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح قد تمثل التراث اللساني العربي واللسانيات الغربية، ولذلك فهو يعرف كيف يضع الأشياء في نصابها وكيف يفرق بين الأوضاع.

1- د/ عبد الرحمن الحاج صالح –أثر اللسانيات... ص 27.

5 - 2 - 6 - مستويات التحليل:

على هذه المفاهيم الأصيلة أسست اللسانيات الخليلية الحديثة تحليلاتها للغة طبقا للمستويات أو المراتب الآتية:

المستوى 6	↑	الحديث أو الخطاب
المستوى 5	↑	أبنية الكلام أو البنى التركيبية
المستوى 4	↕	اللفظات جمع لفظة
المستوى 3	↑	الكلم أو الكلمات
المستوى 2	↑	الدوال
المستوى 1	↑	الحروف
المستوى 0	↑	الصفات المميزة

وانطلق العلماء العرب في تحليل اللغة من مستوى اللفظة **la lexie** وهو «المستوى الذي تتحدد فيه الوحدة اللفظية والوحدة الإعلامية أو الإفادية»،[1] ثم يبدأ المستوى 0 الذي يخص الصفات المميزة المتمثلة في **المخارج** من الحلق إلى الشفتين، والصفات مثل: الجهر والهمس والغنة وغيرها. ثم يتدرج إلى المستوى الأول كما تدل العلامة ↑ المتمثل في الحروف، فقد اقتصرت العربية على ثمانية وعشرين حرفا وستة أصوات حركات وحروف مد.

وتتركب الحروف في وحدات أخرى حسب مقاييس وقوانين مضبوطة لتكوّن **المستوى الثاني** المتمثل في «الدوال» أو العناصر الدالة وهي أربعة: **أولا المادة الأصلية** المكوّنة من حروف المعجم مثل: «ض.ر.ب»، ثانيا الوزن أو الصيغة المتمثلة في القوالب التي تفرغ فيها المواد الأصلية، ثالثا حروف المعاني وهي جملة الأدوات التي تدخل على الاسم والفعل فتعطيها معنى إضافيا غير المعنى الأصلي لهما، ويعرفها عبد الرحمن الحاج صالح بأنها: «كلمة محسوسة بنيت بناء لازما وظيفتها تخصيص دلالة الأسماء والأفعال

1- د/ عبد الرحمن الحاج صالح –منطق النحو العربي والعلاج الحاسوبي للغات، بحث مخطوط.

وقد يقوم بعضها مقام الأسماء والأفعال من حيث المعنى والإفادة، فتعد في أحد هذين القبيلين إلا أنها تبنى بناء لازما كالأدوات الأخرى وذلك مثل الضمير واسم الإشارة والاسم الموصول.»[1]، و رابعا **العلامة العدمية** أو ترك العلامة كما سماه العرب القدامى ويتمثل في غياب اللفظ الدال فيما يحقق من الكلام وتتجلى عند مقابلة القطع اللغوية بعضها ببعض وذلك مثل: طويل للذكر وكتبت للمتكلم وطويلة ة للتأنيث وكتب Ø للغائب.[2]

وأما المستوى الثالث من التحليل فينبني على المستويين السابقين ويتمثل في في «الكلم» وتندرج فيه الأسماء والأفعال، وقد عرف سيبويه الوحدات في هذا المستوى بقوله «فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل.»[3]

إن الكلم نوعان: متمكن يتمثل في الأسماء والأفعال المتصرفة التي لا تحتاج إلى غيرها في الدلالة على معناها. **وغير متمكن** ويتمثل في حروف المعاني والأفعال الناقصة وغير المتصرفة والأسماء المبنية: فالكلم المتمكنة يبتدأ بها ويوقف عليها، لأنها تنفرد بنفسها في مدرج الكلام وتتركب من أصل وصيغة، وأما غير المتمكنة فتحتاج إلى غيرها من الكلم وينعدم فيها الأصل والصيغة.[4]

أما مستوى التحليل الخاص باللفظة فينتظم انتظاما معقدا، يقول عنه عبد الرحمن الحاج صالح: «إن الكلم.. لا تنتظم في الكلام على مثل الانتظام البسيط الذي يتصوره بعض اللسانيين الغربيين وأكثر النحاة المتأخرين، فإن الوحدات في هذا المستوى ليست هي الكلم مجردة من لوازمها بل هي وحدات يندمج فيها الاسم والفعل مع ما يقترن به لزوما من أدوات مخصصة به ثابتة وغير ثابتة على صورة دخول وخروج يسمى عند نحاتنا القدامى بالتعاقب، بل ومن وحدات مماثلة أي من جنسها ومستواها تخصصها على

1- د/ عبد الرحمن الحاج صالح –أثر اللسانيات... ص 34.

2- انظر –د/ خولة طالب الإبراهيمي –مبادئ في اللسانيات، ص 96.

3- الكتاب –الجزء الأول- ص 12.

4- انظر د/ عبد الرحمن الحاج صالح –أثر اللسانيات... ص 34 وما بعدها.

مثل ما تفعله الأدوات إذ تقوم مقامها وتؤدي ما تؤديه، وذلك مثل المضاف إليه والتركيب المسمى بالصلة والموصول والصفات وحتى الأبنية المسماة – من حيث الإفادة فقط- جملا».[1]

وعلى هذا الأساس فإن عبارات: الكتاب –كتاب التلميذ، بالكتاب، الكتاب المفيد الذي اشتراه التلميذ أمس- تعد بمنزلة الكلمة الواحدة وهي التي سماها الرضي الاستراباذي **لفظة** لا كلمة. ومن هنا اقترح الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح على علماء اللسان الغربيين أن تسمى Lexie لفقدان هذا المفهوم عندهم.[2] تكون اللفظة بهذا عبارة عن مجموعة من الكلمات «كالاسم الواحد أو بمنزلة الاسم الواحد» كما قال سيبويه.[3] ويتم التفريق بين هذه الوحدات وتحديدها بمقياسين هما:

1 - **مقياس الانفصال والابتداء:** أي أن تكون القطعة اللغوية قابلة للانفصال عن غيرها ويمكن الابتداء بها في المراتب الآتية:

- وحدات يبتدأ بها ولا يوقف عليها مثل: «إلى» في «إلى القسم».
- وحدات لا يبتدأ بها ويوقف عليها مثل: «تُ» في «كتبتُ».
- وحدات يبتدأ بها ويوقف عليها مثل: «رجل» جوابا على «من دخل؟».

2 - **قياس التمكن:** ويتمثل في قابلية القطعة اللغوية على تحمل الزيادات يمينا ويسارا على محور التعاقب، ويعد الاسم أكثر الكلمات تمكنا لأنه يقبل الزيادة بكثرة على اليمين وعلى اليسار. وهذا مثال اللفظة الاسمية مأخوذ من الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح:[4]

1- المرجع نفسه – ص 35 .

2- المرجع نفسه – ص 35.

3- الكتاب، ج1، ص 433-421، و ج2 ، ص 276-274، قال سيبويه: «فأما النعت الذي جرى مع المنعوت فقولك: مررت برجل ظريف، فصار النعت مجرورا مثل المجرور لأنه كالاسم الواحد... أما لا النافية للجنس واسمها فجعلت وما عملت فيه بمنزلة اسم واحد.»

4- انظر د/ خولة طالب الإبراهيمي –مبادئ في اللسانيات- ص 97 وما بعدها.

حد الاسم اللفظة الاسمية

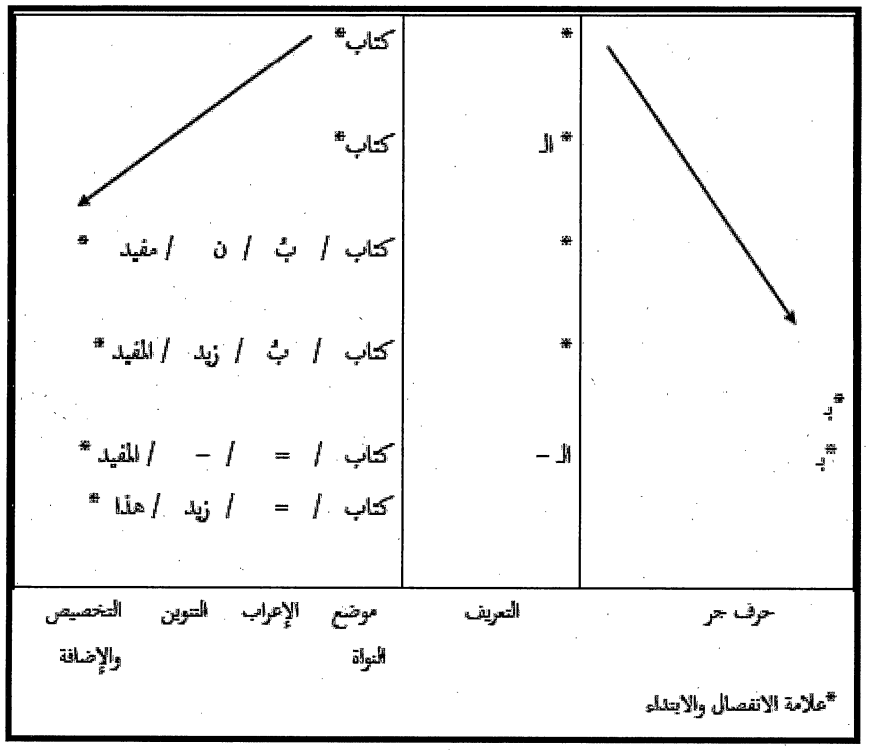

أما المستوى المتعلق بأبنية الكلام فيعني التراكيب والجمل وهو أعلى من اللفظة «ويبحث عن المثال المجرد الذي يبنى عليه أقل الكلام المركب وذلك بحمل كلام على آخر من جنسه»[1]. بمعنى أن الانطلاق في التحليل اللغوي يتم من أقل ما يمكن أن يتكلم به لكن فيما فوق اللفظة

لاكتشاف البناء أو الأصل «بل يتجاوز ذلك إلى مستوى أكثر تجريدا وهو مستوى **العامل** وهو العنصر اللغوي الذي يتحكم في التركيب فيعمل فيه الرفع والنصب، فهو الذي يحدد العلامات الإعرابية في التركيب.»[2]

1- - نشير إلى أن أبنية الكلام تختلف عن أبنية الكلم في كون أبنية الكلم تخص الأوزان والقوالب التي تفرغ فيها المفردات مثل: فَعَلَ بالنسبة لـ «كتب» بينما أبنية الكلام هي القوالب التي تفرغ فيها الكلمات لتكوّن وحدات التراكيب تسمى تراكيبا أوالجمل.

2- - انظر –خولة طالب الإبراهيمي –مبادئ اللسانيات...- ص 100.

قد أوجز الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح أبنية الكلام في العربية بقوله: «إن أصغر ما يبنى عليه الكلام يتكون دائما من عامل ع ومعمول أول م1 ثم معمول ثان م2[1]. وهكذا يعد العامل أو العمل النحوي[2] الفكرة الجوهرية التي تأسست عليها نظرية النحاة العرب... فكل تغيير يحدث في المبنى والمعنى إنما يجيء تبعا لعامل في التركيب، فلا تجد معمولا إلا وتصور له العلماء العرب الأوائل عنصرا لفظيا أو معنويا هاما هو العامل الذي يكوّن مع معموله زوجا مرتبا Couple ordonné.[3]

وقد أكد سيبويه في الكتاب أنه لا تكاد تخلو بنية لفظية من عنصرين اثنين هما العامل والمعمول الأول[4]. ولابد من الإشارة إلى أن **موضع العامل** هو موضع في داخل الحد أو المثال، ثم إن العامل أو المعمول الأول شيء ومحتواه شيء آخر... فقد يكون في موضع العامل فعل تام أو فعل ناسخ أو إن وأخواتها أو تركيب مثل: «حسبت» وهي جملة، بل حتى عامل ومعمول أول ومعمول ثان مثل: «أعلمت عمرا»... وذلك كما يلي: [5]

1- د/ عبد الرحمن الحاج صالح: النحو العربي والبنوية: اختلافهما النظري والمنهجي، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة – العدد1 سنة 2002، ص 26.

2- د/ عبد الرحمن الحاج صالح:
Linguistique générale et linguistique Arabe, tome 2, P199.

3- انظر –د/ خولة طالب الإبراهيمي –مبادئ في اللسانيات... ص 113.

4- انظر –د/ محمد صاري –تيسير النحو قديما وحديثا... ص 154.

5- انظر –المرجع نفسه- ص 155.

الأصل	Ø	زيد	منطلق	-	تكافؤ
	كان	زيد	منطلقا	أمس	
	إن	زيدا	منطلق	-	
	حسبت	زيدا	منطلقا		
	ضرب	زيد	عمرا		
	رأى	خالد	عبد الله	وهو راكب	
	ضرب	ت	عمرا	ظلما	
	ضرب		ته	أمس	
	1	2	3	4	

وأما المستوى الأخير من التحليل فيتعلق بالحديث أو الخطاب وهو أعلى ما يمكن أن يصل إليه التحليل، فقد كان للخليل وسيبويه والعلماء العرب الذين جاءوا من بعدهما نظرية لغوية متميزة فرّقوا فيها بين النظرة إلى الكلام باعتباره خطابا والنظرة إليه باعتباره بنية ومن أهم المبادئ التي بنيت عليها هذه النظرية التمييز الصارم في تحليلهم للغة بين جانبها الوظيفي وهو الإعلام والمخاطبة، أي تبليغ الأغراض المتبادل بين متكلم ومخاطب وبين جانبها اللفظي الصوري؛ أي ما يخص اللفظ في ذاته وهيكله وصيغته بغض النظر عما يؤديه من وظيفة في الخطاب غير الدلالة اللفظية.[1]

وقد استغلق هذا على الدارسين المعاصرين فأدى إلى كثير من الخلط وعدم التمييز في التحليل بين المستويين، من ذلك أن كثيرا يعد كتاب سيبويه كتابا في النحو والتصريف والإعراب فقط، وهو في الحقيقة كتاب يتعلق

1- علم المصطلح –الكتاب الطبي الجامعي... ص 47.

بعلوم العربية ويدرس اللغة من حيث كونها بنية لفظية صورية ومن حيث كونها حدثا إعلاميا هدفه الإفادة، أي إفادة المخاطب خبرا.

5 - 3 - على مستوى البناء اللغوي:

تتميز لغة الخطاب عند عبد الرحمن الحاج صالح بالدقة والإيجاز، فهي لغة علمية صافية خاصة باللسانيات لا تنزاح عنها إلى غيرها إلا بما يقتضي المقام، تتعامل مع المفاهيم والمصطلحات وتتميز بحضور لغة التراث ممثلة في شخصيات العلماء العرب الأجلاء أمثال:

يونس بن حبيب وأبي الأسود وعيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء والخليل وسيبويه والجاحظ والمبرد والفارابي وابن جني والرماني والسيرافي وابن الحاجب والرضي الاستراباذي وعبد القاهر الجرجاني وابن خلدون وغيرهم من العلماء الأجلاء، وممثلة في عناوين كتبهم ونصوصهم المختلفة واستعمالاتهم اللغوية المتميزة ومصطلحاتهم الدقيقة ومفاهيمهم الأصيلة.

كما تحضر عنده لغة اللسانيين الغربيين بالدرجة نفسها أحيانا لكن بما يحقق التفاعل بين التراث اللغوي العربي وبين الحداثة في خطاب مترابط منسجم له هويته اللغوية والعلمية. وهو في ذلك يتجاوز مرحلة الترجمة اللسانية إلى مرحلة التفكير العربي اللساني في المبادئ والأفكار والمفاهيم والمصطلحات ومنه النفاذ إلى مرحلة الإجراء التطبيقي بمراعاة العلاقة الوثيقة بين اللسانيات والعلوم الأساسية مثل: الرياضيات والفيزياء وعلوم الحاسوب والعلوم البيولوجية والإلكترونيك. فاللغة لها علاقة بكل هذه العلوم وإتقان اللغة هو إتقان لها ومنها اللسانيات؛ أي إتقان اللغة هو إتقان اللسانيات أيضا.

إن القارئ الحصيف لكتابات عبد الرحمن الحاج صالح يلاحظ الدقة في استعماله للمصطلح؛ لأنه يبحث في أصوله المعرفية وينظر إليه في سياقه النصي الذي ورد فيه «فتوجد بين المصطلح والنص روابط متنوعة وقوية، فالمصطلح يعار للنص وينقل إلى داخله، كما أنه يحدد داخل سياقاته،

وبالمقابل فإن المصطلح يستعمل إطار النص وسيلة للتعبير عن دلالته وفضاء لممارسة الوصف وفق قواعد تركيبية وصرفية.»[1]

ولذلك يظل عبد الرحمن الحاج صالح يبحث عن مفهوم المصطلح في محيطه النصي ومحيطه الاجتماعي الذي نشأ فيه أولا ثم كيف حصل فيه التطور.

إن أهم ما ينبغي أن يتوخاه الباحث النزيه، كما قال الأستاذ الحاج صالح في فهم مقاصد النحاة الأولين هو أن ينتهج المنهج العلمي الصحيح. بأن يقوم بالمسح الشامل للنص وأنه مثلا لا يفسر كتاب سيبويه من بين الكتب إلا كتاب سيبويه وهذا يتطلب طريقة خاصة في استخراج معاني النص وفهم مقاصدها الحقيقية؛ فالنص إذا كان طويلا بحيث يسمح بتكرر الأقوال فيه بشكل مختلف فإنه يمكن أن تحمل هذه الأقوال بعضها على بعض بشرط أن تكون القرائن المقالية والقرائن الحالية واحدة، ويتم الوصول إلى المعنى الحقيقي المقصود في إطار التقابل الدلالي.[2]

من ذلك مثلا تحديده لمصطلح الفصاحة، فقد بدأ بالتساؤل عن الغرض من الفصاحة عند سيبويه ومن عاصره إلى عصر الجاحظ. فبدأ باستقراء الكتاب استقراء كاملا متتبعا اللفظ في جميع سياقاته كما ورد بمختلف المشتقات، وبعد ذلك اتضح أن -فصحاء العرب- عند سيبويه هم «الموثوق بعربيتهم» و «الذين ترضى عربيتهم» فالفصاحة ههنا هي الفصاحة اللغوية؛ أي صفة الإنسان الذي لم تتغير لغته ويجوز الاستشهاد بكلامه.

ثم إذا طبقنا ذلك على كتاب البيان والتبيين للجاحظ عثرنا على المصطلحات الآتية: «جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب...» ويستدل بما أقامه الجاحظ بين هذه الألفاظ أن الفصاحة تقابلها اللكنة والإغلاق واللحن، ثم عرفنا بما قاله بعد ذلك

---

1 -انظر، د/ عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات... الجزء 1، ص 18.

2- انظر، المرجع نفسه، ص18 وما بعدها.

أنها تفقد بطول من مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام. فالعربي الفصيح الذي اصطلح عليه اللغويون آنذاك هو: الشخص الذي لم يتعلم لغته من معلم بل نشأ عليها ولم يتأثر بلغة أخرى وينصح على ذلك أن يستشهد بكلامه.[1] إن الشرط هنا في الفصاحة هو المنشأ اللغوي لا الجانب العرقي كما يعتقد الكثير.

وبهذا يتضح أن تحليل النص لا يبنى على البحث عن معاني الكلمات في المعجم بل على البحث عن مقاصد أصحابها بالضبط بالرجوع إلى أقوالهم.

بهذه الطريقة توصل الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح إلى معرفة مقاصد النحاة العرب القدامى وفهمها وفهم كل ما يتعلق بالنظرية اللغوية العربية.

إن البعد النصي يوضح بجلاء أشكال العلاقات الدلالية والمنطقية بين المفاهيم من ناحية، وبين السياقات المختلفة للمصطلح الواحد من ناحية ثانية. كما يوضح أيضا أنماط العلاقات التركيبية التي تختص بها اللغة العلمية[2].

ويمكن أن نقدم المثال الآتي:

عنون الدكتور إبراهيم مذكور عنوان أحد أبحاثه بـ: منطق أرسطووالنحو العربي.

وعنون الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح عنوان أحد أبحاثه بـ: النحو العربي ومنطق أرسطو.

وما يلاحظ في العنوانين هو أن ترتيب الكلمات فيهما ليس ترتيبا اعتباطيا، وإنما يبين المنطلق الفكري عند كل منهما؛ فإذا كان الدكتور مذكور ينطلق من قناعة فكرية وهي أن منطق أرسطو قد أثّر في النحو العربي ولذلك وضع «منطق أرسطو» في بداية عنوانه ثم عطف عليه النحو العربي؛ فإن الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح قد انطلق من قناعة فكرية مخالفة وهي أن النحو

1- انظر ، علم المصطلح... ص47

78- 2انظر، المرجع نفسه... ص 113.

العربي تميز بالأصالة ولم يتأثر بمنطق أرسطو ولذلك وضع عنوانه: النحو العربي ومنطق أرسطو. سقت هذا المثال لأبين أن المصطلح بناء على هذا المنظور ليس مجرد علامة لسانية، بل إنه بالإضافة إلى ذلك وعاء للمعرفة، فداخل أنساقه أو نظمه يتم تصنيف مقولات الفكر المختلفة، وتبويب المعرفة وانتظامها في مجالات وحقول خاصة بها تبعا لسياقاتها المرجعية، ويصير الرصيد المصطلحي عبارة عن بنية كبرى تجزئ الواقع إلى مفاهيم هي مجمل المفاهيم التي تلخصها الأسماء الاصطلاحية وتمكن صاحبها من رؤية العالم.

خاتمة:

يتبين لنا من خلال هذا الموضوع أهمية علم المصطلح في بناء المعرفة بصفة عامة وفي بناء خطاباتها المختلفة المعرّفة بها ومنها الخطاب اللساني العربي الحديث، وذلك على مستويات متعددة هي: المستوى المعرفي والمستوى المنهجي والمستوى اللغوي فكل مستوى من هذه المستويات له بناؤه الخاص والذي يتفاعل مع بقية الأبنية الأخرى بما يخدم البناء العام للخطاب اللساني العربي الحديث. وقد اتخذنا من المنجز اللساني للدكتور عبد الرحمن الحاج صالح عينة تمثيلية؛ لأن الموضوع يمثل في الحقيقة مشروع بحث ضخم، فقدمنا فيه قراءة على مستوى البناء المعرفي والبناء المنهجي والبناء اللغوي وكيف وعى المصطلح في لغته العربية ولغات غيره ومدى تأثير ذلك في خطابه على مستوى سعة المعرفة ودقة المنهج وضبط اللغة وتقديم البرهان والدليل.

إن علم المصطلح له علاقة وطيدة ببناء المعرفة وبتداولها بدءا من مرحلتها الجنينية الأولى وهي تصورات ترتسم أخيلتها في الأذهان إلى أن تتشكل في مفاهيم محددة تضبطها مصطلحات محددة دالة عليها تضمن حياتها ووجودها.